

□ الحجاج المغالط في شعر المتنبي

مقاربة حجاجية لأليات المغالطة في الكافوريات

البشير عزوزي

قسم اللغة والأدب العربي،

سلطان كلية الآداب واللغات، جامعة محمد البشير الإبراهيمي

سلطان برج بوعرييج - الجزائر

Résumé

L'argumentation avec ses différents concepts a pu polariser un ensemble de chercheurs de diverses doctrines.

Cet essai a pour but la définition de ce type est un défaut en l'action intercommunicative, alors pouvons nous le considérer dans la poésie un cotécitatif et une façon de manifester les capacités du poète de cacher les vérités et les sentiments.

L'essai a pour but d'éclaircir tout cela en appliquant cette étude sur la poésie d'El Moutanabbi dans sa satirique qui butait Kafour dans un ensemble de textes « Kafouriete » ouverts sur un nombre d'interprétations.

Les mots-clés :

Argumentation, Argumentation
sophistique, la poésie,
Elmoutanabbi, Kafouriete.

المُلخَص: نتناول في هذا البحث نوعاً من أنواع الحجاج، هو الحجاج المغالط أو المغالطة أو بالمفهوم العريق (السفسطة). حيث نعرّف بهذا النوع من الحجاج وأساليبه وآلياته. وإذا عدّ هذا الضرب من الحجاج عيباً في العملية التواصليّة، فهل يمكن اعتباره في الشعر أسلوباً فنياً مبتكراً يظهر قدرة الشاعر على إخفاء الحقائق وكتمان المشاعر؟ هذا ما سنحاول البحث فيه والإجابة عنه من خلال التّطبيق على ديوان المتنبي، وخاصّة ما قاله في كافور؛ حيث يرى كثير من الباحثين أنّه نصوص مفتوحة على العديد من القراءات المتناقضة في كثير من الأحيان.

الكلمات المفتاحية: الحجاج؛ الحجاج المغالط، الشعر، المتنبي، الكافوريات.

إنّ الناظر في شعر المتنبي يجده بحراً لا تنفذ

غرائبه وكوناً لا تنقضي عجائبه، كيف لا وهو الذي نطق بفضله العقلاء وسار بحكمه الأدباء والخطباء والنّصحاء. ومن هنا صار حقلاً ثرياً لمختلف الدراسات على مرّ الزّمان وتعاقب الأيّام وتغيّر النظريّات والمفاهيم، ومن أبرز القضايا التي شغلت النّقاد في القديم والحديث قضية

الحجاج المغالط في شعر المتنبي مقارنة حجاجية لآليات المغالطة في الكافوريات - أ. البشير عزوزي

الكافوريات؛ بين من جعل المتنبي فيها متكسباً طامعاً، وبين من رفعه وأعلى قدره وجعل ما في الكافوريات أقرب إلى الهجاء منه إلى المدح لما يحتمله نصّها من التّأويلات وما يرتضيه من تعدّد القراءات، ونحن نحاول في هذا المقال أن نعرض الكافوريات على نظرية معاصرة هي نظرية المغالطة أو الحجاج المغالط، تلك التي عدّت عيباً في الخطاب ووعوراً في الاتّصال، لنذكر في النهاية أنّها استراتيجية لا يمتطيها إلّا من أوتي من البيان أحسنه ومن اللّغة أتمّها، ليتّضح في الأخير أنّ المتنبي أتقن هذا الأسلوب إتقاناً كبيراً، واستعمل فيه أغلب أساليب التّذليل والتّمويه، وأسّس لمذهب شعري جديد.

1- تعريف المغالطة، وصفات الحجاج المغالط:

من المعلوم أنّ الحجاج من أبرز مظاهر التّفاعل اللّغوي الذي يهدف إلى التّواصل، عن طريق التّحاور الذي يقوم على الانتصار لرأي أو الدّفاع عن فكرة، بأنواع كثيرة من الحجج العقلية، وبوسائل الإقناع والإفحام والغلبة، غير أنّه في بعض الأحيان ينحرف عن الاحتكام إلى العقل والأساليب المنطقية والمسلمات المشتركة بين الطّرفين، ليرتمي في أحضان المشاحنة والعنف والمغالطة والتّمويه والتّضليل والتّعظيم والإيهام والمكيدة، فينقلب الحجاج بذلك كلّهُ إلى عنف يمارس بطرق شتى، وخاصةً الوسائل اللّغوية، فيخرج من دائرة الحوار التّعاوني وينقلب إلى حجاج مغالط يخرق القواعد العادية للتّواصل¹. والمغالطة بتعبير أخصّ وتعريف أدقّ هي: "درجات من الخفاء والانكشاف، منها ما يلتبس بالأقيسة المنطقية، لا يتوصّل إلى كشف زيفه إلّا بالنظر السّديد العميق، ومنه ما هو فجّ ظاهر العطب يقوم على الاستخفاف بالمتلقّي، وهو أقرب إلى الإغبات نيّته التّضليل"². ويظهر جلياً من هذا التّحديد ما تحويه المغالطة من خداع وتذليل ومناورة وسفسطة، لا يهدف المرسل من ورائها إلى الوصول إلى الحقيقة، وإنّما يهدف إلى دحض منافسه مع تعمّد تضليله، وقصد خداعه ومحاولة إخفاء الحقيقة عنه³. ومن خلال التّعريف نستنتج أنّ الحجاج المغالط يتّصف بكونه⁴:

- (1) - استدلالاً فاسداً يبدو وكأنّه صحيح؛
- (2) - مقنعاً سيكولوجياً لا منطقياً؛
- (3) - يعمد إلى الغلط المقصود؛
- (4) - يختفي وراء الغموض اللغوي أو الإثارة العاطفية، بحيث لا تتبيّن حقيقته إلّا بالفحص الدقيق؛
- (5) - يخرق كلّ أشكال التّواصل والحوار، كما يخرق قواعد الحوار التّفاعلي.

وكلّ هذا يتمّ باعتماد آليات تغليطية، ومقومات تضليلية يعتمدها المخاطب لاستدراج المخاطب ومن ثمّ تغليطه. ومن هنا نرى أنّ الدّراسات التّداوليّة والحجاجية تعدّ المغالطة عيباً في الكلام، لفساد استدلالها، وغموض لغتها، وبعدها عن المنطق، ومجاافتها للحقيقة.

2- آليات التّغليط:

يسلك المخاطب مسالك عديدة وطرقاً شتى لاستدراج المخاطب ومن ثمّ تغليطه، ويمكن ردّ هذه الآليات إلى نوعين اثنين؛ لغوية وغير لغوية (خارج لغوية).

2-1- الآليات اللّغوية:

للمخاطبين بصفة عامّة حيل وتلبيسات من لم يعرفها لا يمكنه الاحتراز منها، حيث ينتهي الأمر بالمخاطب إلى أن يفهم من القول ما يخالف المقصود، بشكل يفضي إلى تعطيل الفهم، وبالتالي سوق الخصم إلى الضلالة.⁵ والآليات التّغليطية تتعلّق باللّغة بالدرجة الأولى من خلال خاصّيتها سواءً التّركيبية أو الدّالية أو التّداولية، أو بالارتكاز على عوامل تسهّل هذه العمليّة؛ مثل الاستعارات، والأسماء التي تقال حقيقة في موضع ومجازاً في موضع آخر.⁶ ويمكن للتّغليط اللّغوي أن يكون من جهة الألفاظ كاشتراك اللفظ المفرد، أو اشتراك اللفظ المؤنّف، أو أفراد القول المركّب إلى غير ذلك، وقد يكون التّغليط من جهة المعاني. أو باجتماعهما معاً.⁷

2-1- أ- المغالطة من جهة الألفاظ:

وهذه المغالطات تعود إجمالاً إلى الالتباس بمختلف مستوياته، والالتباس من مسلمات الخطاب الطّبيعي، والذي يعتبره طه عبد الرّحمن مزية في الخطابات الطّبيعية وليس عيباً فيها، لأنّه يكسبها الطّواعية الكافية التي تستجيب لأغراض التّبليغ التي لا تحصى. وفي هذا الشأن يلجأ المغالط إلى خدع الاستدلال التي تحجبها اللّغة، بوصفها نسقاً مولدّاً للالتباس، فالقول المتعدّد قد يظنّه المتلقّي واحداً؛ إذ يعتقد أنّ المرسل لا يرسل إلاّ رسالة ذات معنى وحيد، متوهّماً أنّ للدّال مدلولاً واحداً، بينما له في الحقيقة أكثر من مدلول، وهذا هو سبب انطلاء الخدعة عليه.⁸

ومن التّغليط بالألفاظ "أنّ يعمد المغالط إلى التّعقيد اللّفظي الذي يجعل الكلام خفي الدّالة على المعنى المراد به، أو تكون الألفاظ غير مرتّبة وفق ترتيب المعاني، أو باعتماد الألفاظ المشتركة والملتبسة."⁹ إنّ المتنبي بوصفه من أبرز الشعراء الذين يشحنون أشعارهم بالغريب من الألفاظ والمعقد من التّراكيب، فإنّ شعره كذلك امتلأ بالمغالطات اللّفظية التي غالت بها كافوراً، ولنا في ذلك أمثلة كثيرة أهمّها:

(1) - اشتراك اللفظ المفرد:

وبه يستطيع أن يتحوّل عن مقصده، أو يخفي مراده، وراء تعدّد الدلالة، وذلك أنّ اللفظ الواحد قد يدلّ على أكثر من معنى، فيعمد المغالط إلى اللّعب على هذه الخاصّيّة ليتّصل من بعض مراده، أو يوهّم أنّه قد قصد أموراً معيّنة، وذلك بالوجه الذي يفيد مقاصده.¹⁰ يقول المتنبي:¹¹

وما طربي لما رأيته بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

الحجاج المغالط في شعر المتنبي مقارنةً حجاجةً لآليات المغالطة في الكافوريات - أ. البشير عزوزي

في هذا البيت ثلاثة ألفاظ هي (طربي، أطرب) و (بدعة) و (أرجو) التي تدلّ كلّ واحدة منها على معنيين مختلفين ممّا جعل البيت كلّه يدلّ على معنيين:

الأوّل: شوق المتنبي لرؤية كافور؛

الثاني: الصورة المشوّهة في ذهن المتنبي عن كافور، لقد فهم المخاطب/كافور من البيت أنّ المتنبي كان يطير فرحاً ويحترق شوقاً لرؤيته، في حين أنّ المتنبي الذي تعمّد استعمال هذه الألفاظ قصد إلى عكس ذلك تماماً، حيث إنّه كان يرسم في مخيلته صورة قرد مضحك، فيتحوّل المعنى من السرور إلى الضحك، ومن المدح إلى الهجاء، ليهوي المخاطب في شرك المتنبي، ويسقط من حيث لا يعلم، وهذه المغالطة لا تدرك إلاّ بالنظر المتكرّر والفحص الدقيق. وهنا يظهر جلياً أنّ الشاعر قام بمغالطة المخاطب باستعمال اللفظ الدالّ على معنيين. ويقول المتنبي: ¹²

يقال إذا أبصرت جيشاً وربّه أمامك ربُّ ربِّ ذا الجيش عبده

ورد هذا البيت في قصيدة طويلة، مدح بها كافوراً، ولم تخل هذه القصيدة غيرها من بعض المغالطات والسفسطات التي راوغ بها المتنبي كافوراً، وفي هذا البيت لفظة (عبد) التي تدلّ على معنيين متناقضين يفهمان من البيت، حيث يدلّ المعنى الأوّل على التواضع، والمعنى الثاني يدلّ على الذلّة والضّعة، ممّا جعل البيت كلّه يدلّ على معنيين متناقضين هما:

الأوّل: عظم الجيش وهيبة القائد، ورغم ذلك يتحلّى هذا القائد بقمة التواضع واللّين، حتّى يبدو كعبد وليس كسيّد.

الثاني: وهو الذي قصده المتنبي، وهو أنّك أيها الناظر في عظمة هذا الجيش وبأسه وقوته، فإنّه من المؤسف أنّ قائده من العبيد الذين قدر لهم أن يحكموا الأحرار. وفي هذا البيت نوعان من المغالطة (السفسطة)؛ الأولى: ما ذكرنا، والثانية هي تجريح الشّخص، والتي تعني (عدم الاقتناع بفكرة ما دام حاملها غير كفاء) ¹³، فعظمة الجيش هوت في مزلق شخصيّة هذا العبد الآبق والأسود الخصي.

(2) - اشتراك اللفظ المؤلّف:

وفيه أوجه عدّة فمنه ما كان من قبل التّقديم والتأخير، ومنه ما كان راجعاً إلى احتمال الضّمير أكثر من معنّى، ومنه ما كان راجعاً إلى التباس الحصر، إلى غير ذلك من الأوجه ¹⁴. فمثال الأوّل في البيت السّابق (ربّ ذا الجيش عبده) في التّركيب تقديم وتأخير، يستطيع الشاعر أن يقول: (عبد ذا الجيش ربّه)، ولكّنه لجأ إلى التّقديم والتأخير ليخفي مقصده، ويستتر هجاءه، لأنّ العبارة الثانية هجاؤها صريح لا يحتاج إلى تأويل.

ومثال الثاني قوله: ¹⁵

وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً لمن بات في نعمائه يتقلّب

الحجاج المغالط في شعر المتنبي مقارنة حجاجية لآليات المغالطة في الكافوريات - أ. البشير عزوزي

هذا البيت من عجائب حكم المتنبي؛ فمن بات في نعمة رجل أنعم عليه، ثم بات حاسداً له فهو أظلم الظالمين، وأعدى المعتدين. وهذا ظاهر البيت في حين أن البيت يدلّ على معانٍ ثلاثة:¹⁶

الأول: أن يحسد من أنعم عليه؛

الثاني: المنعم يحسد من أنعم عليه؛

الثالث: أن يحسد كلّ ربّ نعمة كائناً من كان.

السبب في تعدّد هذه القراءات هو احتمال الضمير والاسم الموصول أكثر من معنى، حيث يجوز أن يعود على المتنبي أو كافور، وهذا من أشهر أساليب المغالطة، اعتمده المتنبي ليخفي هجاءه الذي نفهمه من المعنى الثاني، فالمتنبي كان يدرك أن كافوراً كان يبغضه ويتحىّن الفرصة لسجنه أو قتله، فهو رغم ما أسبغ عليه من النعم إلا أنها نعم حسود لا خير فيها. ومثال الثالث قوله:¹⁷

إنما التهنّئات للأكفاء ولمن يدني من البعداء

وهذا الحصر في البيت يحتمل معنيين:

الأول: التهنّئات للأكفاء وأنا أهنتك؛ إذا أنت كفو؛

الثاني: التهنّئات حكر على الأكفاء، وأنت لست منهم ولست كفوّاً للتهنئة.

والمعنى الثاني أقرب إلى الفهم، ومثاله قول التلميذ للمعلّم "أعطني جائزة" فيجيبه المعلّم "إنما الجوائز للمجتهدين"، ويفهم من هذا أنّ التلميذ في نظر المعلّم ليس مجتهداً. وفي هذا البيت هجاء صارخ وقدح بين، إذ لما طلب كافور من المتنبي تهنّته بدار بناها، أجابه المتنبي بقصيدة مطلعها هذا البيت.

(3) - إفراد القول المركّب: وذلك أنّ القول المركّب إذا أسند إلى كلام آخر دلّ دلالته، وإذا أفرّد دلّ دلالة مخالفة لدلالته. فيعمد المغالط إلى إسناده في شيء موهماً أنّه يدلّ دلالته¹⁸. ومثاله قول المتنبي في مدح كافور:¹⁹

فإن نلت ما أمّلت منك فربّما شربت بماء يُعجز الطير ورده

هذا البيت يحتمل مدحاً وذمّاً، " فإذا أخذ بمفرده من غير نظر إلى ما قبله فاتّه يكون بالذمّ أولى من المدح؛ لأنّه يتضمّن وصف نواله بالبعد والشّدوذ، وصدر البيت مفتتح ب(إن) الشرطيّة، وقد أوجب بلفظ (ربّ) التي معناها التقليل، أي لست من نوالك على يقين، فإن نلته فربّما وصلت إلى مورد لا يصل إليه الطير لبعده، وإذا نظر إلى ما قبل هذا البيت دلّ على البيت خاصّة؛ لارتباطه بالبيت الذي قبله،²⁰ والبيت الذي قبله هو:²¹

يخلف من لم يأت دارك غاية ويأتي فيدرك أنّ ذلك جهده

الحجاج المغالط في شعر المتنبي مقارنة حجاجية لآليات المغالطة في الكافوريات - أ. البشير عزوزي

ويصير معنى البيت أن المتنبي تكلف المشاق وبذل الجهد في سفره ليصل إلى كافور. فالمتنبي أدرج بيت الهجاء في قصيدة مدح ليحمل معناها ويخفي قصده لمن يعرف شعر المتنبي، ويدرك أسراره ويعرف خباياه.

2-1- ب- التعليل من جهة المعاني:

يعود التعليل من جهة المعنى إلى جملة من الأفعال المغلطة التي يستند إليها المغالط لتحقيق هدفه إبطالاً أو حفظاً، ويتعلق الأمر بالمضامين التي قد تكون صادقة أو مشهورة فقد تكون في الأصل غير مغلطة، لكنه يعدلها ويبدلها بشكل يسمح باستخدامها لهذا الغرض. ومن ثم يكون بمقدوره أن يغلط وهو يتكلم، فيستبدل بذلك ما هو باطل بما هو حق، وما هو كاذب بما هو صادق، وما هو شنيع بما هو مشهور، وهذا عن طريق استخدام البعد الوظيفي والتداولي للغة، فيجعل المفهوم يغير المقصود، مما يجعل الأخذ بالمعنى المراد صعب المنال، فيدخل الحيرة والشك على المتلقي ليجعله لا يستقر على دلالة واحدة، أو يمرر من خلاله فكرة أو قضية لا يستطيع المتلقي إدراكها²². وله صور كثيرة أهمها: ²³ العرض والذاتية، الإطلاق والتقييد، الجهل بما هو الإبطال، اللزوم، المصادرة على المطلوب، اعتبار ما ليس بعلة علة، جمع مسائل كثيرة في مسألة واحدة. ويمكن حصر هذه الصور في أمور ثلاثة هي: ²⁴

(1) - الخروج عن الشكل الصحيح للقياس: وفيه وجهان للتعليل:

أ - المصادرة على المطلوب:

وهو جعل المقدمة في القياس هي نفسها النتيجة، كقول المتنبي: ²⁵

تفضح الشمس كلما ذرت الشمس سُبْ بشمسٍ منيرة سوداء

"وهذا من المستحيلات التي لا تتحقق ولا تكون ولا تتوهم، إذ جعله شمساً منيرة ولكنها سوداء"²⁶ انطلق المتنبي من مقدمة ثم وصل إليها ليمرر هجاءه النافذ، وتجريحه البالغ، حيث جعل السواد مصدرًا للنور، وجعل المتلقي يسلم بهذه المقدمة، ليصل في النهاية إلى أن هناك شمساً سوداء هي كافور.

ب- أخذ ما ليس سبباً للنتيجة على أنه سبب للنتيجة:

وهو ربط نتيجة ما بسبب ليس من أسبابها، كقول المتنبي: ²⁷

وما كنت ممن أدرك الملك بالمنى ولكن بأيام أشبن النواصيا
عداك تراها في البلاد مساعيا وأنت تراها في السماء مراقيا

وقوله: ²⁸

فمالك تعنى بالأسنة والقنا وجدك طعان بغير سنان

الحجاج المغالط في شعر المتنبي مقارنة حجاجية لأليات المغالطة في الكافوريات - أ. البشير عزوزي

المتنبي هنا يجعل سبب بلوغ كافر غاية ليس بالسعي والاهتمام، بل بالجدّ والسعادة، ومحال أن تكون السعادة والراحة بديلاً عن الأسنّة والقنا، لأنّها قد تنال الخامل والجاهد ومن لا يستحقّها. ويأخذ المتنبي ما ليس سبباً للنتيجة على أنّه سبب لها، فيكون قياسه باطلاً، مخرجاً للكلام عن مقصده من المدح إلى الهجاء، فالمتنبي هنا يبني قضية مفادها: إذا كان حظّ كافر هو من يطعن الأعداء بغير سنان فيقتلهم، فلم التّعّب في جمع الأسنّة والرّماح، وفي هذا من القدح ما لا يخفى على ذي نظر.

(2) - الاحتيال على المقدمات: وفيه ثلاثة أوجه للتعليل:

أ- اللّعب على بعض الصّفات العرضية في المقدمات، وإجراؤها مجرى الصّفات الدّاتية فينتج الحكم على أساسها: كقول المتنبي: ²⁹

ترعرع الملك الأستاذ مكتهاً قبل اكتهال أديباً قبل تأديب
مجرباً فهماً من قبل تجربة مهذباً كرمًا من غير تهذيب

إنّ صفات الأدب والكرم والفهم والتجريب والتهذيب والاكتهال، كلها صفات عرضية في الإنسان منها ما ينال بتعويد النفس وترويضها، ومنها ما يتلقّى، ومنها ما لا ينال إلا لمن عركتهم الأيام وعصرتهم الأحداث وطالت عليهم السنون. والمتنبي هنا يجعل هذه الصّفات ذاتية لكافر ملازمة له، ليبيّن عليها مدحه وبالأحرى مغالطته، وبيان ذلك من وجهين:
الأوّل: أنّ الصّفات التي ذكرها المتنبي عرضية، وبالتالي لا يعقل أن تنال إلا بما ذكرنا؛ فلا يمكن إصدار حكم نهائيّ على صفات عرضية.

الثاني: إسناد هذه الصّفات وجعلها ذاتية، أخرج القول من المدح إلى الهجاء، وتأمّل قوله: (مكتها قبل اكتهال)، (أديباً قبل تأديب)، (مجرباً فهماً من غير تجربة)، (مهذباً من غير تهذيب)، فيخاطبه إنّ هذا الملك الأستاذ ترعرع وشبّ مكتهاً بدون اكتهال وأديباً بدون أدب؛ أليست هذه من السخرية؟ هل يبلغ المرء عمر الاكتهال قبل الاكتهال؟ الذي يقصده المتنبي هو أنّ كافوراً له بنية كهل وليست بنية فارس، من الجائز أن يكون أديباً في خلقه قبل أن يكون أديباً في ثقافته وتفكيره إذا أردنا أن نصرف كلمة أديب إلى الأدب، التي تعطي معنى الفكر، أو الذي يحوز من كل فن طرفاً، كما يعبر الأوائل، ويمضي المتنبي في سخريته فيصف كافوراً بأنه مجرب من قبل التجربة، وفهماً من قبل الفهم، ومؤدباً بدون أدب، فماذا يقصد؟ وكيف يكون الإنسان فاهماً قبل الفهم؟ ومجرباً قبل التجربة؟ ومؤدباً قبل الأدب؟ أليس هذا من السخرية بوضوح وليس بمدح؟ إنّها سخرية غفّفاً تغليفاً عميقاً.

ب- أن يتمّ أخذ المقيّد كما لو كان مطلقاً:

الحجاج المغالط في شعر المتنبي مقارنة حجاجية لآليات المغالطة في الكافوريات - أ. البشير عزوزي

بعض القضايا تصحّ مقيدة بشروط، فإذا انتفت هذه الشروط، زال التقييد، وبالتالي بطلت القضية. وذلك مثل قول أحدهم: الهاتف النقال إدمان، فيجيبه الآخر: أنت ضدّ التكنولوجيا والتقدم. ومما هو مشهور عند ابن رشد: (الزنجي أسود والزنجي أبيض الأسنان، فالزنجي أبيض وأسود)، ومنه قول المتنبي: ³⁰

أرى لي بقربي منك عيناً قريبة
وإن كان قريباً بالبعد يشاب
وهل نافعي أن ترفع الحجب بيننا
ودون الذي أملت منك حجاب

يقرّ المتنبي أنّه قريب من كافور بالعين فقط، أمّا القلب فإنّه داعيه دائماً إلى البعاد، وتركيب القضية، المتنبي بعيد عن كافور وإنّما يقربه غايته وأمله في أن ينال ولاية من كافور، ويترجمها بيت بعد هذين البيتين هو: ³¹

وفي النفس حاجات وفيك فطانة
سكوتي بيان عندها وخطاب

ومن هنا يمرّ المتنبي هجاءه، ويستتر بغضه لكافور إلى غاية نوال مراده. ومنه أيضاً: ³²

إنّ في ثوبك الذي المجد فيه
لضياء يزري بكلّ ضياء
إنّما الجلد ملبس، وابيضاض الـ
نفس خير من ابيضاض القباء
... من لبيض الملوك أن تبدل اللو
ن بلون الأستاذ والسّحاء

هذا المعنى الذي جاء به المتنبي - وهو كثير في مدائح كافور - منسوج على منوال مثال ابن رشد المذكور سابقاً، حيث جعل كافوراً مزيجاً من السّواد والبياض، والظلمة والضياء، وفي هذا تعريض أيما تعريض بلون كافور وتذكير له بسواده، وأنّه الوحيد في وسط ملوك بيض، وأقبح منه دعوة كلّ الملوك البيض ليلبسوا سواد كافور وهيئته، فتأمل قبح هذا وتجريحه.

ج - اللّعب على بعض الصّفات اللاحقة وتعميمها: وذلك أنّ المغالط يعتمد إلى صفة معينة، مقصورة في موضوع معين، ثمّ يجريها على كلّ الموضوعات، مثل: كلّ مريض أصفر الوجه، إذن كلّ أصفر الوجه مريض، ومنه قول المتنبي: ³³

هُمَا ناصِراً مَنْ خانَهُ كُلُّ ناصِر
وأُسْرُهُ مَنْ لَمْ يُكثِرِ النّسْلَ جُدُهُ
أنا اليومَ مِنْ غِلْمانيهِ في عَشيرةٍ
لنا والدٌ مِنْهُ يُفدِيهِ وُلْدُهُ

ينطلق المتنبي في هذين البيتين من مقدّمة هي: بما أنّ كافوراً عبداً، فإنّ كلّ أبائه عبيد مملوكون، وبما أنّ المتنبي يعيش في ظلّ عبد، فإنّه عبد مثله، واحد من أبناؤه وغلّمانه. وهنا يثبت المتنبي الهجاء لكافور من وجوه عدّة:

الأول: أنّ قلّة نسل جدّ كافور ليس في العدد، وإنّما في الصّفة التي هي العبودية، فهو عبد يلد العبيد؛

الحجاج المغالط في شعر المتنبي مقارنة حجائية لآليات المغالطة في الكافوريات - أ. البشير عزوزي

الثاني: أن المتنبي يتحسر على نفسه، وكيف صار يعيش في كنف حفنة من العبيد، ليعتبر نفسه واحداً منهم.

الثالث: يعيره بأنه خصي، فدليل انعدام الرجولة في نظر المتنبي هو قلة النسل.

ومعنى البيت العام هو أن كافوراً من أسرة لم يعقب جده ذرية كثر، فتأمل هذين البيتين فهل يصح أن يكون كافور سلاحاً كما يتقلد المتنبي السيف أو أنه من أسرة ما كثر فيها النسل، لأن المتنبي يراه عبداً مملوكاً فكأنه إذا نسل جده أو أبوه إنما ينسل عبيداً ليسوا مستقلين، إنما هم مملوكون لسادتهم، وهذا من السخرية اللاذعة.

(3) - أن تؤخذ النتيجة التي ليست نقيضاً لما سلم به الخصم على أنها نقيض، وله وجهان من أوجه التعليل:

أ- أن يتم التحايل على شروط النقيض: فيؤخذ مقابل ما ليس بمقابل، لأنّ النّقابل يقتضي أموراً كالزّمان والمكان والجهة... ومثاله: قوله تعالى على لسان إخوة يوسف عليه السلام: "قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل"³⁴ فقام إخوة يوسف بمقابلة غير صحيحة، إذ اعتبروا أنّ سبب سرقة بنيامين، هو أنّ أخاه كان سارقاً (حاشا نبيّ الله)، وهذا رغم تباعد الزّمان بينهما. ومثاله أيضاً (ليس في أصل كافور من هو أمير، إذن كافور ليس أميراً) وهذه المغالطة بنى عليها المتنبي كلّ شعره في كافور، منها ما أظهره فعلمه كافور ومن حوله، ومنها ما أخفاه فعلمه العلماء فقط. والمتنبي يعتمد هذا الأسلوب المغالط في شعره بصفة عامّة سواء المدح أو الهجاء أو الهجاء المدسوس في المدح. والذي نحن بصددده هو الثالث، ومثاله:³⁵

مستقلّ لك الدّيار ولو كما
ولو أنّ الذي يخزّ من الأمّ
ن نجوماً آجر هذا البناء
واه فيها من فضة بيضاء

إنّ الدّيار بساكنيها، وما دام كافور عبداً فإنّ كلّ دار يسكنها قليلة حقيرة في عين المتنبي، كما أنّ نور هذه الدّيار وأضواءها لا تساوي شيئاً أمام سواد كافور.

ب- أن تؤخذ مسألتان أو أكثر في مسألة واحدة:

وذلك أنّ بعض المسائل التي تقتضي تفصيلاً ينظر في أبحاثها ووجوهها المتعدّدة، يجمعها المتنبي في قصيدة واحدة. وهذا كثير في شعره وبخاصّة أنّه يعتبر من أقدّر الشعراء على جمع المعاني الكثيرة في البيت الواحد، فكيف بالقصيدة بأكملها.

يلجأ المتنبي إلى حشو قصيدته بكثير من المعاني المدحية في كافور، حيث يطوف بكلّ ألوان المدح، ويتخلّل ذلك تذكير بوعد كافور للمتنبي بنوال ولاية، حيث يسعى المتنبي من خلال هذا كلّّه إلى الوصول إلى أشياء أهمّها:

- دس الهجاء القليل في المدح الكثير حتّى لا يشعر به كافور؛

الحجاج المغالط في شعر المتنبي مقارنة حجاجية لآليات المغالطة في الكافوريات - أ. البشير عزوزي

- القدرة على ذكر الحب الصادق لسيف الدولة وشدة الحنين إليه دون علم كافور؛
 - التذكير الدائم بوعد كافور بنوال الولاية؛
 - إعلان الفخر بالنفس والتنزه عن المال والعطايا، ليضع نفسه في بعض الأحيان فوق منزلة كافور، كما يتخلله في بعض الأحيان انكسار ويأس من الحياة.
- تسير أغلب مدائح المتنبي لكافور وفق هذا القانون، ويستطيع المتنبي لها أن يدرك ذلك بسهولة، ففي أغلب قصائده يكثر من المسائل والمعاني حتى يدس ما يريد ويقول كل ما يختلج في نفسه، وهذا ما يدل على نبوغ المتنبي وتفرد في جمع شتات المعاني والأغراض في القصيدة الواحدة. ولو تخلّى المتنبي عن سفسطته، وأفرد لكل غرض قصيدة، أو قلّ من المواضيع في القصيدة الواحدة لعلم مقصده وكشفت غايته.

2-2- الآليات الخارج لغوية/ غير اللغوية:

إذا كانت آليات التعليل اللغوية تنحصر في نوعين اثنين هما اللفظية والمعنوية، فإن الآليات الخارج لغوية/غير اللغوية كثيرة ومتعددة، مما يفسح المجال للمغالط فيدلّس ويضلّ ويموّه، وأهمّ هذه الوسائل:³⁶

2-أ- طبيعة الموضوع، أو وجود اختلاف بين مقصود المتكلم ومفهوم المخاطب:

إنّ أول ما يصادفنا عند الكلام عن ثنائية (كافور/المتنبي) الاختلاف الصّارخ بين مبادئها وفكريهما، اختلاف يطغى عليه كره المتنبي العارم لكلّ دخيل على الأمة العربية، هذا الكره الذي خيم على سائر شعر المتنبي، وبخاصة في كافور، فقد جعل شعاره:³⁷

تفلح عرب ملوكها عجم	وإنما الناس بالملوك وما
ولا عهد لهم ولا ذمم	لا أدب عندهم ولا حسب
ترعى بعبد كأنها غنم	بكل أرض وطنتها أمم
وكان يبرى بظفره القلم	يستخشن الخز حين يلبسه

لذلك لم يستطع المتنبي التخلّص من هذا المبدأ، بل هذه الرسالة التي نذر نفسه لإيصالها، وهذه الدعوة التي وقف نفسه لخدمتها، ومن هنا كان لا يستقيم أن يمدح من كان يعرف تمام المعرفة أنّه خصمه اللدود، ومما يعمّق الحيرة ويوسّع الإشكال مبادلة كافور المتنبي الشّعور نفسه، فيصبح لدينا شخصان يتبادلان البغض وبتراشقان الحقد. وعلى هذا فلا بدّ من تتبّع كلّ رسالة وجهها المتنبي لكافور، لنعرف في الأخير أنّ معظمها إن هو إلاّ شوك في سمن وسم في عسل، وإذا توجّه المتنبي بالمدح لكافور، فإنّ مقصده يخالف مفهوم كافور، فالمتنبي يقصد الهجاء وكافور يفهم المدح، ولكنّ نستثني بعض الأبيات التي فهمها أو أفهمها. وهذا العنصر يلخص أغلب الكافوريات لذلك سنكتفي بالاستشهادات السابقة.

2-ب- جهل أحدهما بالموضوع، أو تجاهله أو عدم الاعتراف بجهله:

ويكمن هذا في الأبيات التي قالها المتنبي وجهلها كافور، أو الأبيات التي فهم معناها، وكنتم ذلك عن المتنبي، مما جعله يتمادى في هجائه المدسوس في المدح، وكتمان كافور ليس إلا تبيناً من هجاء المتنبي حتى يتأكد منه فيقتله أو يحبس كى يكف لسانه، وهو يعلم أن المتنبي إن خرج من عنده فسيطلق لسانه في هجاء فاحش وسب لاذع. وما يروى عن كافور أنه لما أشده المتنبي القصيدة الخالدة في وصف الحمى ونوائب الزمان، قرع سمعه الأبيات التالية:³⁸

فَلَمَّا صَارَ وَدُّ النَّاسِ خَبًا	جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بَابْتِسَامٍ
وَصِرْتُ أَشْكَ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ	لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ
يَحِبُّ الْعَاقِلُونَ عَلَى التَّصَافِي	وَحَبُّ الْجَاهِلِينَ عَلَى الْوَسَامِ
وَأَنْفٍ مِنْ أَخِي لِأَبِي وَأُمِّي	إِذَا لَمْ أَجِدْهُ مِنَ الْكِرَامِ

وهنا وقفة مع المتنبي لتحدث معه والحمى تهزه هزاً عنيفاً وتغسله بالعرق الساخن في كل ليلة عندما تفارقه، ويتمطى الصباح ويفتح جفنيه ليرسل أنواره على الأفق والمنتبي وحيد، وكان في قصيدته فناً مصوراً ترسم ريشته رسمة ملونة تتحرك مع كل فصل من فصول ما يعانیه من ألوان صور الحمى، وليس معه من يخفف عنه هذه الويلات وهذا العناء الذي يقاسيه، لا كف تربته، ولا ثغر يبسم له، فليس معه إلا الله وكفى به حارساً وكافياً. وهذه القصيدة من قصائده التي أبدع فيها إبداعاً هائلاً، ولكنه لم يفته حتى عرض بكافور في مثال حي متحرك يصور البشرية حتى يومنا هذا، فلما قرأ المتنبي صورة البشر المتحركة وجدها تظهر ما لا تخفي، وتخفي ما لا تظهر فإن حبها هو حب خداع، وابتساماتها ابتسامات مكر، فهو يجزيها بمثل ما تعامله، وحتى تغلغل به هذه القراءة فبلغ بها الهوس واليأس حتى صار يشك فيمن يجعله خليلاً، ويصطفيه كأخ له لعلمه أنه من الأنام، وقد روي عن المتنبي الرواية التاريخية أن كافوراً كان يضاحكه، ويبتسم له، ولما سمع هذه القصيدة وهذه المقولة صار لا يبتسم له ولا يضحك، فاستدل المتنبي على فطنة كافور وذكائه.

2-ج- تمكّن أحدهما بالدليل القاطع ومحاولة إقناع الآخر:

وفي هذا العنصر يتحول المتنبي من متلق إلى متلق آخر، إنه يتوجه بمدائح كافور إلى العروبة بصفة عامة، وإلى العلماء بصفة خاصة، إنه يطوي تحت جنبه عروبة خالصة ونفساً أبيّة، وشخصية فذة، وهذا لا يرحزه عنه أحد ولا تصده عنه عداوات الأنام ولا نوائب الأيام، إنه ينقل إليك يا من اتهمه بمدح كافور مستترزقاً طامعاً أنه ما مدحه يوماً ولا أحبه ساعة، بل راح يهجوه في سلطانه و يطعنه تحت سقف داره، فمن الناس من آمن به وعرف قدره وأدرك صدقه، ومنهم من صد عنه وراح يطعن فيه، ويرمي بالتهم إليه، وعند الله تجتمع الخصوم. وها هو المتنبي يصرح بما كان كاتماً له مكنياً عنه:³⁹

الحجاج المغالط في شعر المتنبي مقارنة حجاجية لآليات المغالطة في الكافوريات - أ. البشير عزوزي

ولولا فضول الناس جنتك مادحاً
بما كنت في سرّي به لك هاجياً
فأصبحت مسروراً بما أنا منشد
وإن كان بالإنشاد هجوك غالياً

وهذه الأبيات من مقطوعة شديدة التجريح، قاسية العبارة، هناك من يربطها باليائية التي استقبل بها كافوراً، ولكنّه كتمها، وصرّح بها بعد أن نجح في الفرار منه.⁴⁰ ويصرّح أيضاً في آخر كلام له عن كافور:⁴¹

وكان على قرينا بيننا
وكان على قرينا بيننا
...وشعر مدحت به الكركدن
بين القريض وبين الرقي
فما كان ذلك مدحاً له
ولكنّه كان هجو الوري
مهامه من جهله والعمى

2-د- طعن أحدهما في الآخر واستصغاره وتجريحه بغية الحطّ من قيمته:

إنّ كلّ كلمة قالها المتنبي في كافور هي أشدّ وقعاً، وأعظم أثراً في النفس لأنه اختار له من المنازل أدناها، ومن الخصال أذمّها، ومن الفعال أقبحها، واستطاع من خلال هذا الأسلوب أن يدكّ كلّ كلمة مدحه بها، ويُنسي كلّ بيت أثنى فيه عليه، ليترسّخ في ذهن كلّ منلقّ الصّورة المشوّهة التي رسمها المتنبي لكافور.

2-هـ- المبالغة في الثناء والمدح بهدف استمالتته، ومن ثمّ الانقلاب عليه؛

وهذا ممّا قرّره سابقاً؛ وهو أن يدسّ الهجاء القليل في المدح الكثير، ومن ثمّ يطغى الهجاء القليل على المدح الكثير، فبيت هجاء من طرف المتنبي يسحق قصيدة مدح.

2-و- استخدام سلطة ضاغطة معيّنة؛

ليس للمتنبي سلطة يفرضها على كافور، وليس له قوّة يسخرها إلاّ قوّة البيان؛ الذي لا يستطيع أن يضغط عليه به، ولكن يستطيع أن يقول من خلاله ما يريد، ويبوح بما يشاء، وقد رأينا كيف تلاعب بالألفاظ والمعاني فصرفها كما أراد، وقلّبها كما شاء. هذا بالنسبة لكافور، أمّا بالنسبة للمتلقّين لشعر المتنبي، فإنّه استعمل النّزوع إلى العروبة وخصالها وأمجادها كسلطة ضاغطة، خاصّة وأنّه ركّز على ضياع ملكها وفساد لسانها، ممّا جعل الأهاجي المدسوسة في مدائح كافور تنتشر كالنّار في الهشيم ويضمحلّ معها المديح، فأبيات الهجاء أرسلت صورة مشوّهة لكافور وأنست صورته المشرقة المثبتة في كتب التّاريخ والسّير. وبالمقارنة نجد أنّ المتنبي لم يهجو سيف الدولة ولم يجرحه، وما كان من ذكر غدره إنّما هو عتاب جرّته إليه حرقة الفراق ولوعة الشّوق، ولم يزد المتنبي على هذا، ويظهر هذا من خلال مخاطبة المتنبي قلبه، ولم يخاطب أحداً (أقلّ اشتياقاً أيّها القلب)، فهو يرى سيف الدولة مثال العربي الأبيّ والمجاهد الصّادق، ولم يغيّر نظرتّه إليه.

2-ز- المظهر المخادع، والهبيّة المضلّلة:

الحجاج المغالط في شعر المتنبي مقارنة حجائية لأليات المغالطة في الكافوريات - أ. البشير عزوزي

لقد رسم المتنبي لنفسه، ثوباً من المجد، وصرحاً من القوة والفتوة، فالنزوع إلى التّعالّي متجدّر في ذاته، ومقوم من مقومات شخصيته، بما استشعره في تكوينه وطبيعته من إمكانات، أكسبته اعتداداً وثقة بالنفس، وتعالياً على الآخرين، حتى بات مقتنعاً أن لا أحد فوقه ولا أحد مثله⁴². وإن سلّط غضبه على مهجويّه، فإنه يستعين على الحطّ من قيمتهم برفع شأنه، وإذا وجدناه يرفع الممدوحين إلى أعلى المراتب، فلا ينسى أن يضع نفسه في مرتبة ممدوحه، أو أعلى منها، بل إنه يفخر ويمدح في بيت واحد⁴³. وقد يرسم المغالط لنفسه زياً مقبولاً، أمام خصمه أو أمام الجمهور، ممّا يجعل القلوب تميل إليه، والأنفس تستكين إليه، فهو يسعى لأن يظهر بمظهر يخفي فيه ما يبطنه، ويضللّ به عن نواياه، ويموّه به عن مقاصده، وقد يستغلّ المغالطة بنفخ النفس ليظهر الخصم صغيراً أمامه⁴⁴، ومن خلال هذا الأسلوب يسعى المتنبي لأن يُري نفسه لكافور في حلّة من الوفاء والتّضحية والحبّ، وفي كثير من الأحيان يرفع نفسه فوقه، ويعتبر مدحه عطية فوق ما يهبه ممدوحه، بل إنّ قيمته وهيبته وعلو منزلته تزيد من قيمة مدحه. وأمثلة ذلك كثيرة في مدح كافور وغيره، ومن ذلك قوله:⁴⁵

ولكنّ قلباً بين جنبيّ مالِه مدىّ ينتهي بي في مراد أحدّه

ومثله:⁴⁶

أصادق نفس المرء من قبل جسمه وأعرفها في فعله والتكلم
وأحلم عن خلّي وأعلم أنّه متى أجزه حلماً على الجهل يندم

ومن هنا يظهر جلياً أنّ أبا الطيّب قد أتقن مغالطته في مدح كافور وفق تقنيات سفسطائية تغليطية دقيقة، ممّا يتطلّب دراسة تداولية خاصّة بهذا، لتكشف مستوره، وما لا يزال مغموراً في تلك المدائح الفريدة، ممّا قد يؤسّس لمذهب فنيّ في الشّعر العربي القديم، ويفضي إلى ترسيخ النّظرة الدّاعية إلى دراسة الشّعر القديم وفق النّظريات اللّغوية والمعرفية المعاصرة، وفي هذا كشف متجدّد لمخبّات النّصوص الشّعريّة القديمة من جهة، والاعتراف بنبوغ أصحابها من جهة أخرى.

الهوامش والإحالات

¹ - حافظ إسماعيلي علوي و محمد أسيداه، اللسانيات والحجاج، الحجاج المغالط: نحو مقارنة لسانية وظيفية، ضمن كتاب (الحجاج مفهومه ومجالاته)، جمع وتقديم حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010. ج3، ص271.

- 2- محمد العمري، دائرة الحوار ومزالق العنف، كشف أساليب الإعانة والمغالطة، مساهمة في تخليق الخطاب، إفريقيا الشرق الدار البيضاء، 2002، ص30.
- 3- المرجع نفسه، ص361.
- 4- ينظر: حافظ إسماعيلي علوي و محمد أسيداه، اللسانيات والحجاج، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ص273.
- 5- حسان الباهي، تهافت الاستدلال في الحجاج المغالط، ضمن كتاب: (الحجاج؛ مفهومه ومجالاته)، ص262.
- 6- حسن الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004، ص122.
- 7- ينظر: رشيد الرّاضي، الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت-لبنان، ط1، 2010، ص ص66-71.
- 8- حافظ إسماعيلي علوي و محمد أسيداه، الحجاج واللّسانيات، ص ص274-275.
- 9- حسن الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، ص178.
- 10- رشيد الرّاضي، الحجاج والمغالطة، ص66.
- 11- عبد الرحمان البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط/، 2002، ج1، ص 242.
- 12- المصدر نفسه، ج1، ص417.
- 13- رشيد الرّاضي، الحجاج والمغالطة، ص19. بتصرف.
- 14- ينظر: المرجع نفسه، ص67.
- 15- عبد الرحمان البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ج1، ص240.
- 16- ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص72.
- 17- المصدر السابق، ج1، ص114.
- 18- رشيد الرّاضي، الحجاج والمغالطة، ص67.
- 19- عبد الرحمان البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ج1، ص 418.
- 20- ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص52.
- 21- المصدر السابق، ج1، ص418.
- 22- ينظر: حسن الباهي، تهافت الاستدلال في الحجاج المغالط، ضمن كتاب (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ص ص262-263.
- 23- ينظر: حافظ إسماعيلي علوي و محمد أسيداه، اللسانيات والحجاج، ضمن كتاب (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ص274.
- 24- ينظر: رشيد الرّاضي، الحجاج والمغالطة، ص ص69-71.
- 25- عبد الرحمان البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ج1، ص116.
- 26- محمود شاكر، المتنبي، ص364.
- 27- عبد الرحمان البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ج2، ص1280.
- 28- المصدر نفسه، ج ن، ص1242.

- 29- المصدر نفسه، ج1، ص227.
- 30- المصدر نفسه، ج ن، ص252.
- 31- المصدر نفسه، ص ن.
- 32- المصدر نفسه، ج1، ص ص116-117.
- 33- المصدر نفسه، ج ن ص414.
- 34- سورة يوسف، الآية: 77.
- 35- عبد الرحمان البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ج1، ص 115.
- 36- ينظر: حسان الباهي، تهافت الاستدلال في الحجاج المغالط، ضمن كتاب (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ص ص258-259.
- 37- المصدر السابق، ج2، ص1085-1086.
- 38- المصدر نفسه، ج ن، ص1160.
- 39- المصدر نفسه، ج ن، ص1284.
- 40- ينظر: عبد العزيز الدسوقي، المتنبي شاعر العروبة وحكيم الدهر، ص286.
- 41- عبد الرحمان البرقوقي، شرح ديوان المتنبي ج1، ص ص122-124.
- 42- ينظر: نوال إبراهيم، المتوقّع واللامتوقّع في شعر المتنبي، دار جرير للنشر، عمان-الأردن، ط1، 2008، ص53.
- 43- محمّد التّونخي، المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس، ط1، 1975، ص214.
- 44- ينظر: حسان الباهي، تهافت الاستدلال في الحجاج المغالط، ضمن كتاب: (الحجاج: مفهومه ومجالاته)، ص261.
- 45- شرح البرقوقي، ج1، ص 413.
- 46- المصدر نفسه، ج2، ص 1252.